

الجرائم البيئية لنظام حزب البعث (الدجيل، تجريف البساتين، البصرة)

المحور الأول: الدجيل

تعد الدجيل إحدى مدن محافظة صلاح الدين وتعد تاريخياً من المناطق الزراعية المعروفة في العصر العباسي وكان العباسيون يمنحونها لمن يريد تضمينها. تبعد الدجيل مسافة (٦٠) كم إلى الشمال من بغداد، وتحيط بها بلدات الضلوعية وقضاء بلد من الشمال وناحيتي التاجي والطارمية من الجنوب الشرقي، وفي الجنوب الغربي يوجد ذراع دجلة ومنطقة سبع البور و النباعي وفي الغرب تحاذيها منطقة الثرثار وهي أرض منخفضة ويبلغ عدد ساكنيها نحو (١٠٠,٠٠٠) نسمة. تشتهر ببساتينها وأراضيها الزراعية الخصبة بزراعة أنواع عديدة من الأشجار كالبرتقال والرمان والعنب. والدجيل عبارة عن بستان كبير لكنها مدينة صغيرة وعلى الرغم من أن الأراضي الزراعية تحيط بها من كل مكان فإن بيوتها ليست كبيوت القرى، ويشقها نهر صغير يطلق عليه اسم (مشروع الدجيل)، وتكثر فيها أشجار الحمضيات بكل أنواعها والكروم والنخيل غير أن النظام البائد أقدم على تجريفها وحولها فيما بعد إلى أرض قاحلة (٣٣).

لعل إحدى أبرز الجرائم البشعة التي ارتكبتها نظام (صدام حسين) المستبد بأمر مباشر منه جريمة تدمير قرية الدجيل إبان محاولة اغتياله سنة (١٩٨٢) فيها، تكمن بشاعة هذه الجريمة في الرد العنيف وغير المبرر الذي لحق بأهالي قرية الدجيل بسبب حادثة محاولة الإغتيال تلك، إذ قام بعدها بتهجير وتدمير المئات من سكان القرية رجالاً ونساءً وأطفالاً، وتم إعدام جموع من المواطنين لتورطهم المزعوم في العملية، و تم نفي المئات الآخرين وتدمير منازلهم ومزارعهم وممتلكاتهم وكانت الحجة التي يقدمها أنصار النظام البائد هي أنهم قاموا بتدمير تلك المزارع (التي استعملها منفذو محاولة الاغتيال كغطاء أثناء الهجوم) لمنع حدوث مماثل في المستقبل. هذه الجرائم أدت إلى تهجير سكانها وتدمير بساتينهم ومزارعهم مما أثر ذلك سلباً في النظام البيئي جراء تدمير الأراضي الزراعية من جهة، وترك أهلها وهجرتهم لها من جهة أخرى مما أحدث خللاً في التوازن البيئي لتلك المنطقة ومن المحتمل أن يتم الشعور بالآثار البيئية عبر مجموعة من الموائل والنظم البيئية التي تعرضت

للتدمير وانقراض للأنواع المختلفة من الكائنات الحية الحيوانية والنباتية، وأن بيئة ما بعد الحرب في أي منطقة ستكون ملوثة بشدة. ومن الممكن أن يكون هناك أضرار لا يمكن إصلاحها^(٣٤).

المحور الثاني: تجريف بساتين النخيل

تغطي مزارع النخيل مساحات واسعة من البلاد ومن ضمنها منطقة الدجيل البستان الكبير الذي تحول الى اراضي جرداء خالية من النخيل بعد تجريف النخيل وتدميرها إنتقاما من الاهالي بعد حادث الإغتيال ولم يبقَ منها سوى بقايا جذوع ميتة بعد ان كانت تشبه الغابة باتت اليوم خاوية الا بعض ما تبقى من الاشجار التي اصابها الجفاف وخلصت من الثمار.

لم يقتصر الأمر على تناقص أعداد النخيل بسبب التجريف فحسب، وإنما أدى الى اختفاء أنواع من الثمرات أو انقراضها إذ لم تعد تزرع اليوم، كالقنطار والحويز والديري ضمن (٢٥) نوعا إختفت من المزارع والأسواق، من الآثار والاضرار البيئية التي خلفتها ظاهرة تجريف النخيل لأنها تؤدي الى زيادة مخاطر العواصف الترابية نتيجة تعرية التربة وانعدام الحزام الاخضر الذي يصد تلك العواصف ويؤثر التجريف على التنوع البيولوجي واختفاء انواع مختلفة من الكائنات الحية التي تعد الاشجار موطنها الأصلي.

وقد أدى تجريف النخيل الى ارتفاع درجات الحرارة وزيادة ظاهرة الاحتباس الحراري , وأثرت عملية تجريف النخيل في تغيير الواقع البيولوجي والبيئي للمنطقة و نفوق عدد كبير من الحيوانات التي تعيش في داخل هذه البيئة وهجرة عدد آخر منها وتغير نوعية الحيوانات التي تعيش على وفق المتغيرات الجديدة التي اضافتها وتجريف البساتين اسهم في زيادة تأثير هذه العواصف وزيادة شدتها على المناطق الزراعية والسكنية في الدجيل وان تجريف بساتين النخيل الكثيفة واشجار الفاكهة التي تعيش في ضلالها شكلت عاملا مهما في التأثير في نقاء الجو وصفائه حيث انها تعمل على التقليل من التلوث وخلق بيئة نظيفة لها اثار ايجابية على الحياة البيئية وكذلك على الانسان^(٣٥).

المحور الثالث: البصرة

أدت الحرب العراقية – الايرانية الى تدمير شبه كامل لأكبر غابات النخيل في العالم، تلك الممتدة على طول شط العرب. و(مسؤولية) الحرب تأتي عن مستويين: الأول (مباشر) إذ أحالت القذائف الايرانية والعراقية - على السواء- ملايين النخلات الى جذوع محترقة ، فحين كانت القوات الايرانية لم تعبر (شط العرب) بعد كانت القذائف تنهال على القطعات العراقية المرابطة على الشاطئ الآخر من الشط بعد ان احتلت ايران الفاو وشرطا

طويلاً من شط العرب كانت القذائف العراقية تنهال على البقية الباقية من النخيل لطرد المعتدين، والمستوى الثاني الذي دُمّرت الحرب بموجبه غابات النخيل في البصرة (غير مباشر) هو ملوحة الأراضي المتزايدة، وهذه نتجت إثر قيام السلطات العراقية في الحرب بردم أكبر أفتية للتصريف الطبيعي للمياه الممتدة ما بين شط العرب وبساتين النخيل، وذلك لتهيئة الأرض لحركة المدرعات والمدفعية وعجلات القوات المسلحة المتمركزة في المنطقة. وشاركت أحداث الثأر من السلطة العراقية المركزية بعد انسحاب الجيش العراقي من الكويت وهزيمته في الحرب ١٩٩١ في صب المزيد من النار على بساتين النخيل، فقد وظفها المقاتلون الثائرون على النظام العراقي مناطق اختباء لهم بعد انسحابهم من البصرة وضواحيها، وهذا جعلها هدفاً للقطعات المطاردة لهم^(٣٦).

لقد كانت الحروب التي خلفها النظام البائد أساس الكارثة البيئية التي يعاني منها العراق الآن من تجريف النخيل وتدميره، وتراجع انتاج التمور وتدهوره حتى ثمانينات القرن الماضي.

ان الظروف الصعبة التي مرت في المنطقة وحروب النظام البائد التي قضت على الكثير من البساتين وخصوصا في البصرة والمناطق المجاورة لإيران والممتدة حتى محافظة ديالى، ثم الحصار الاقتصادي والعقوبات الدولية وتجفيف الأهوار والإهمال الذي أصاب بساتين النخيل في السنوات الأخيرة، وكذلك الأمراض وتلوث المياه، كلها عوامل أدت الى تقليل أعداد النخيل فضلاً عن الأضرار بالتنوع الأحيائي واندثار الكثير من أنواع التمر. فبالإضافة الى حروبه التي قطعت أعناق آلاف النخيل كان يأمر بتدمير البساتين لمجرد انطلاق اطلاقا معارضة منها. وموقفه هذا منسجم مع موقفه ازاء الاهوار عندما أمر بتجفيفها. فقد حصدت القنابل عددا كبيرا من هذه الأشجار فضلاً عن قيام الجيش آنذاك بتجريف مساحات واسعة من البساتين لتسهيل مرور القطعات العسكرية وإنشاء الثكنات والسواتر وشمل التجريف مناطق زراعية عدة ابتداء من الفاو الى أبي الخصيب والجهة الشرقية لشط العرب. وتوالت الأزمات فكان للحروب الأخرى اثرها أيضا لأن الأسلحة المستخدمة فيها سببت تلوثاً بيئياً أسهم بشكل فاعل في تراجع الزراعة من بينها النخيل، وبعد انتهاء الحروب بأعوام قليلة نشأت أزمة السكن التي أدى تفاقمها إلى تجريف المئات من بساتين النخيل وإنشاء أحياء سكنية في محلها، ثم تعرض هذا القطاع إلى هزة عنيفة بسبب ملوحة مياه شط العرب والمشكلة ناجمة عن تغلغل مياه الخليج الشديدة الملوحة في مجرى الشط الذي تروى من مياهه معظم البساتين^(٣٧).